



التأسيس لنظرة في الكون والحياة



تامر جابر محمود

أماً ببقمتنا المُستثناة، فلم تزل القطيعة التامة (بل الموحشة)، بين ديانة العلم وديانة الناس، نهجاً مُتبعاً. لاهين ومُتلاهين، عن كون السُنن التي يُعالجها العلم، كلمة حق ملأ الله بها سمواته وأرضه. وأمَرنا القرآن نفسه بإصاخة السمع لها، دون جدوى. يقول تعالى:

﴿أَلَمْ يَفْكُرُوا فِي أَنفُسِهِمْ مَا خَلَقَ اللَّهُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ﴾ (سورة الروم - الآية 8)

ولطالما ساءلتُ الآباء الذين ألتقيهم: هل عرفنا نحن الآباء والأمهات، هذا الحق الذي ملأ طباق سماوات الله وأرضه، فملأنا قلوب أبنائنا منه، وأولجناهم بحب سبيله؟ أم هل ظننا أن كل واجبنا نحو أطفالنا، هو ملء معدتهم طعاماً؟ وأن الله لن يُحاسبنا يوم القيامة، عما مُلأت به أفئدتهم وأدمغتهم وهم بعهدتنا، وعن النظرة التي كوَّنوها عن الوجود والحياة، فصحبتهم ما بيَّ من عَمْرهم؟ ألم نعلم بأن العقل أئمن وأبهي ما زُود الله به فلداتنا. فإن عطل أو أفسد، فسَد أدأوه لمهمة عظمى، سَمَّتها الزهراء الأولى «الخلافة في الأرض»؟ ولعمرك لا هي بالمهمة الهيئته، ولا التي بالوسع التَّصَلُّ منها.

لقد ترتب على تراخيها في تزويد أبنائنا بخير الذخيرة ... ذخيرة العلم، أن سار أهل الكوكب جملةً إلى وجهه، وسرناً نحن إلى وجهه أخرى معلومة بالطبع. فضيِّعنا بهذا أغلى وأئمن ما بحياة الطفل المسلم. وهو معايشته العلم كمتعقد ودين. فأغلقتنا دونه أرحب باب لمعرفة ربه، وأغنى مادة لتزكية قلبه وروحه.

ولم نزل نقصي علماء الفيزياء والكيمياء والرياضيات، عن الإدلاء بدلوهم الرائق في معتقد الطفل، وسلوكه إلى الله. على الرغم من مخالفة ذلك للغايات وللوسائل القرآنية، ولمهمة الخلافة المنوطة بهذا الطفل. فكانت أصح نتيجة عن إقصاء العلماء المذكورين عن تمهّد عقل الطفل العربي، وأصوب رصد وتحليل لشبوع الإرهاب باسم المعتقد في الوقت نفسه، ما أشار له أحد المراقبين، من ميل جماعات العنف والإرهاب جميعاً لمسلك واحد هو (اختصار وتبسيط العالم). اختصاراً يتمثل في «إمّا إيماننا ... أو كفرهم». مُختزلاً الوجود في فكرة مسكرين، أحدهما للإيمان والآخر للكفر. ثم اختصار الإسلام

نفسه في فكرة أو فكرتين، بحيث لا يتطلب تطبيقهما الكثير من إعمال العقل أو التفكير. وهو رصد تؤيده الدراسة التي نشرتها صحيفة (نيو ريپابليك) New Republic مؤخراً. إذ تُساءل الدراسة القارئ ابتداءً، عن آخر ما قد يَرِغَبُ اثنان من المسلمين البريطانيين من أصول باكستانية، في التزود به، قبل أن يغادرا محلهم في برمنجهام، متوجهين للقتال مع (داعش) بسوريا. فتُخَيَّرُ القارئ ما بين (معالم في الطريق) لسيد قطب، أو (رسالتنا للعالم) لأسامة بن لادن، أو أحد الكتب المتلفة، والتي تحوي طُرفاً مختصرة لصناعة القنابل والتفجير عن بُعد وخلافه. لتعود فتتفي كل ذلك، ولتضع القارئ بأن آخر ما ابتاعه (يوسف سرور) و (محمد أحمد) قُبيل مغادرتهما، كان كتابين ساذجين، أحدهما عن الإسلام والثاني عن القرآن، من سلسلة (For Dummies) الشهيرة للمبتدئين.

(اختصار وتبسيط العالم) ... تلك كانت - ولا تزال - آفة العقل العربي. صحيح اقتصر أثرها بالسابق على تخلف الثمرة العلمية والاقتصادية. لكنها من اليوم فصاعداً، سُمسي مَفْرَحَةً لأجيال من أمثال سرور ويوسف، وأبو سلمة المصري. لتُسَلِّمَ هؤلاء راية الإجهاد على حطام ما يُعرف، بالشرق الأوسط القديم. مفرخة بوتقتها مناهجنا الهزيلة لعلوم الربوبية والألوهية. وحلبتها نظم التعليم الفاشلة، وإجرام الآباء الذين لم يجدوا من بين أربع وعشرين ساعة يومياً، نصف ساعة يُجالسون فيها فلذات أكبادهم. فيتعهدوا فيها عقولهم وقلوبهم، ويربُّوا فيها أفكارهم ومعتقداتهم، مثلما ربُّوا معيهم. قبل الحسرة من فقدمهم. وقبل أن تذهب وراءهم إلى الضياع، أشياء أخرى جميلة وقيِّمة.

إنني أدعوك في الختام، للعودة للنبع الصافي. فتقيس بنفسك ضيق آراء الرجال، على سعة القرآن ورحابة هديه. فإصلاح (الخطاب الديني) المرجو، شيء يتجاوز بكثير، مجرد تقويم (الخطابة الدينية). فإن سألت عن البداية وعن السبيل، ففيما تقرأ عينك جهدي وخلصتي، فماذا أنت فاعل...؟؟

أبدأ سطورى بكل المعايير الجمالية التي تعيش بداخلنا من لحظة الوجود حين بدأت النفس بفطرة الخالق لها تجيد العلوم المعاصرة بمقياس جمالي تبض الروح من وحي القلب الرحيم، ونبدأ نستعد بعقل حكيم ونعيش الضمير، فهيهات لتلك العناصر المدخلة بموجب المتغير الدخيل من مثيرات تعمل على الاستجابة بفعل الفعل والتفعيل. ويبدأ التسجيل في اللاوعي يعرف كل العلوم بالمعرفة والتفصيل.

نعمل على البحوث ونذكر الجداول في التنظيم بعد عملية الجميع لكل أنواع المعرفة لمختلف العلوم وبالترتيب والتصنيف نعمل على كل قطرة في بحور التجارب لإيجاد الحلول واستكشاف إن كان من الكم والكيف تصنف العقول بعد كل تجربة في عداد المفكر والمبتكر لكل عقل وضع في مختبرات الخبراء لكل شخصية يكتب بكل نمط يكون من حيث كل حركة له نترجمه بالعيون وكل كلمة

في بلدي لا تستقر الطيور تتناوب في رحلات متلاحقة، قد أسميها «مكوكية»، فهي تنتقل أسراباً أسراباً تسبح في الفضاء العميق، وتطول رحلة البحث عن الاستقرار، لكنها سرعان ما تعود وتصر على بناء أعشاشها فوق أشجار الزيتون والكرم والسرور؛ المزروع على حواف الطريق عبر رقعة بلادي الشاسعة.

هناك التقى شابان على شاطئ البحر، أحدهما أبكم والآخر ثرثار، لكن كيف يأتي هذا التضاد العجيب ويلتقي اثنان، تختلف طريقتهما في الحياة بطريقة عجائبية؛ ناطق وساكت، هادئ ومشاغب، محاور يقابله فضاء صامت يمثل في إنسان!

تحدث الشاب في كل شيء وعن كل شيء، تحدث عن الطيور التي تملأ مساحة الوطن، عن ألوانها حتى أنه أخبر الشاب الملتزم بالصمت أنه يبيع الطيور، ويستوردها من خارج البلد؛ سحب نقاله من جيبه ليريه الصور المتنوعة لأنواع الطيور: هذا بيفاء أفريقي، وهذا الطائر من ساحل العاج، وهذا لونه جميل وصوته أجمل ...

أه يا صديقي لو تسمع صدهاء في يوم حزين ستصاب بالغبطة والفرح، لقد كان ثمنه غالياً، يشترونه مني الأثرياء فهم يصابون بالكآبة دائماً ولديهم هاجس أن صوت هذا الطائر يزيل الكآبة .. نعم ...

حدثني رجل ثري؛ يتاجر في كل شيء حتى الأعضاء البشرية أخبرني أنه لا ينام أبداً - لا يعرف معنى النوم - مصاب بالإحباط والإفلاس النفسي، سحب سيجارة لو رأيته لاندثشت منها! فحجمها كبير ورائحتها جذابة، والأغرب من ذلك أنها لا تنتهي أبداً ... كلما امتصها شعرت أن السيجار ازداد طولاً ...!! قال لي وهو ينفث دخانه: هل عندك طيور تجلب السعادة؟

تحرك اللسان نبلورها بأنواع السمع بكل درجة لصوت المخرجات تكون. ونلعب على وتر الإحساس بانخفاض الصوت وكل خطوات المشي يميل وأطرق أبواب الكون بمختلف الطبيعة والتضاريس في كل بقاع الأرض لها تلوين بكل شخصية تحمل جرعات من جمال المكنون وكل مخلوق خلق له نوع من التلوين، وتجذبنا النار حين يطفئها التراب من حين وتأتي الرياح المحملة بالتراب ليطفئها الماء لحين، وتأمل البحار حين نعمل على مزج النار مع التراب ونطفئها بالماء لنلون كل حرارة وبرودة بالمتوسط وعمل الوسيط في كل نفس وعقل وفكر نتحاور من خلال كل ملف في الترميز مخزن كل تجربة أو معرفة أو خبرة في قاموس المصطلحات من إيجابية أو سلبية تكون إنساناً كما أنت تريد لا كما هم يريدون، فقط عليكم أن تتلونوا كما الموقف يريد بقلب رحيم وعقل حكيم تعيش الضمير.

ضحكت أمامه متظاهراً بالاعتداد قائلاً: طلب رخيص .. تقضل ها هو العرض أمامك تماماً واختر ما شئت من زينة الحياة الدنيا ..

بدل خطواته الثقيلة كقتل نفسه بين أفنية المحل، ونظر كثيراً متفحصاً في طائر عجز كثير من الزبائن في وضع اسم لألوانه المتنوعة، فله ألوان غرائبية جداً! لم أقرأ عنها ولم أشاهد مثلها في الطبيعة .. أشار بأصبعه الذي يحمل الأصبع الآخر - أقصد السيجار - قائلاً: هذا - هذا نعم ... لقد أصبت بشيء من الارتياح مجرد أن نظرت إليه، كأنه يحاورني بعينه ويعرف أنني أحتاج إليه ... ضمه إلي ...

وأخذته بلهفة وضممته في أجمل قفص، تناولت المال وتناول الرجل القفص ..

بعد أيام جاءني الرجل نفسه وبصحبتة (المدام) تبدو سيدة في منتصف العمر، حاجباها معقودان وشفاتهاا تلتصقان ببعضهما، وتمتعان عن الابتسام يبدو عليها الضيق، اقترب مني قائلاً: اختر أحلى ما عندك لزوجتي العزيزة، فهي حسدتي على الفرحة التي غمرتني منذ أن اشتريت منك سعدون!

قلت: ومن سعدون هذا؟ ضحك الرجل طرباً وقال: العصفور ذو الألوان الغرائبية!

لقد تفرغت لطمعاه وشرابه ومحادثته، أكاد أن أسجل صوته ورقم هاتفه بجوالي، واسترسل الرجل ضاحكاً ... اقتربت السيدة من عصفور صغير جداً جداً؛ يمتاز بلون أبيض يخامرهم الاصفرار بين ريشاته الحريرية، ورقبته تبدو متموجة، بابتسامه باهتة أشارت: هذا ...

أومأت برأسى .. حسناً ... تقضلي بكل سرور سيدتي ... رأيته تداعبه بصمت .. حينها اقترب زوجها مني وهو يقول: زوجتي منذ أن فشلت في أن تجب لي طفلاً

بالفعل والتفعيل

د. نهلة عوده الوشاح - جدة

زينة الحياة الدنيا

بقلم : سعاد الورفلي - ليبيا

.. أصيبت بشيء غير مفهوم، كرهت الأطفال! وسماع أصواتهم .. لقد أنجبت في البداية؛ لكنهم لا يعيشون!! ذهبت بها إلى أصقاع الدنيا، غير أنه كتب علينا الحرمان من الذرية .. بنتنا نراها من حولنا لكننا لا نملكها ...

انتهى حديثي مع هذا الرجل الذي يبيع كل شيء ولا يمتلك شيئاً!

التقت لمرافقتي الذي يجلس بجواري ولا يأبه لكلامي، غير أنه يطيل النظر في البحر، أشرت إليه: هي هي... أنت لا تسمعي؟؟!!!!

لكنني فوجئت بعد هذا السرد الطويل، والضحك والحكايات المتنوعة التي جلت وصلت بها شرقاً وغرباً؛ أن جليسي لا يمتلك من رأسه سوى النظرة فلا هو يسمع ولا يتكلم

علمت حينها أن زينة الحياة الدنيا لم تكن فقط الذرية ... أو ما نمتلكه في أجسامنا من صحة وعافية، أو ما نتوهمه في هذه الحياة أنه سعادة ونعيم ...

إن زينة الحياة الدنيا؛ في كل ما حولنا من طيور تضيئ السعادة على حياتنا، وبحر يمتد لأهانتنا، وسماء نرفع أبصارنا نحوها في ساعات الضيق؛ فتعجلي وتشرح صدورنا ... وأناسي يستمعون إلينا بكل هدوء - فقط - لتحدثن نحن بانطلاق يلقي صدهاء بين أفانين الحياة.